

جهود اللساني عبد الرحمان الحاج صالح في النظرية الخليلية الحديثة

الدكتور : فريد خلفاوي

جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي - الجزائر

Khelfaoui-farid@univ-elouad.dz

0663740812

ملخص البحث

تهدف هذه الدراسة إلى كشف اللثام عن بعض جهود اللساني عبد الرحمان الحاج صالح في نظريته المسماة "النظرية الخليلية الحديثة"، هذه الجهود المستوحاة من الدراسات اللغوية القديمة، بدءا من الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175هـ) وسيبويه (ت 180هـ) وصولا إلى عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ)، وهذه المفاهيم التي تطرق لها الدكتور يمكننا الاستفادة منها بشكل كبير في الدراسات اللسانية الحديثة، خاصة إذا ما تطرقنا فيها إلى دراسة اللغة العربية وفق المفاهيم اللسانية الحديثة.

الكلمات المفتاح : الأصل والفرع؛ القياس؛ الموضع؛ التحويل؛ الوضع والاستعمال.

ملخص بالانجليزية:

This study aims at uncovering some of the efforts of the linguist Abderrahmane Al-Haj Saleh in his theory of "modern Hebron theory". These efforts are inspired by the ancient linguistic studies, from Al-khalil ibn Ahmad al-Farahidi (175 e) and Sibaweh (180 e) Al-Jarjani (471 e), and these concepts addressed by Dr. we can benefit greatly in modern linguistic studies, especially if we address the study of the Arabic language according to modern linguistic concepts.

Keywords: origin and branch; measurement; placement; conversion, mode and usage.



توطئة:

بعد اكتساح اللسانيات الحديثة الساحة العالمية كعلم جديد ظهرت في الوطن العربي تيارات مختلفة تدعو إلى تطبيق المناهج العلمية الحديثة على الدرس

اللغوي العربي، فاختلف في ذلك الدارسون، فمنهم من رفض الدراسات القديمة جملة وتفصيلاً، ومنهم من استغنى عن النظريات الحديثة استغناءً كلياً، ومنهم من وقف موقفاً وسطاً حيث أراد استثمار كل ما جاءت به اللسانيات الحديثة في درس اللغوي العربي دون أن يستغني عن مفاهيمه ومباحثه الثمينة في هذا التراث، ومن هذا التيار الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح بنظريته الخيلية الحديثة.

وقبل الحديث عن فحوى هذه النظرية يجب الإشارة إلى أن إدراجها في هذا الموضوع لم يكن عبثاً، إنما باعتبارها نظرية رياضية في قضايا اللسان العربي، وباعتبارها أحد الروابط الهامة بين اللغة والعلم.

وعن القيمة العلمية لهذه النظرية يقول الدكتور " الشريف بوشحان"¹:
«... وبهذا الصدد تنتزل النظرية الخيلية الحديثة لصاحبها الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" الذي استطاع أن يكشف عن القيمة العلمية لأعمال اللغويين والنحاة العرب القدامى، وشرع يستثمر أوصافهم وتحليلاتهم في ميادين تطبيقية مختلفة مثل تعليم اللغة العربية وتعلمها، والعلاج الآلي للنصوص، والترجمة الآلية، وأمراض الكلام»³

ويقول عنها أيضا الدكتور "محمد صاري"³: «لقد عكفت هذه النظرية منذ حوالي أربعين سنة تقريبا تدعو معشر اللسانيين والباحثين في العالم العربي إلى قراءة التراث بمنظار علمي بعيد عن التعسف في الاستنتاج، والاعتباط في التأويل، وبفضل جهود علمائها وباحثيها عرفت الدارسين بخصائص علوم اللسان العربي، ومضامينه النوعية انطلاقاً من مقولات اللسانيات الحديثة، فأثبتت الحلقة المفقودة التي تجاهلها الغربيون عندما أرخوا للفكر اللساني البشري، والتي تتمثل في مستخلصات ثمانية قرون أو تزيد من مخاض التفكير اللغوي عند العرب لاسيما القرون الخمسة الأولى من الهجرة، التي أفرزت نظرية شمولية في الظاهرة اللغوية»⁴

أولاً- التعريف بالنظرية:

تعد اللسانيات الخليلية نظرية لسانية عربية جديدة تمثل امتدادا لنظرية النحو العربي الأصيلة التي وضعها "الخليل بن أحمد الفراهيدي" (175هـ) وتلميذه "سيبويه" (180هـ) ومن جاء بعدهما من النحاة العرب القدامى العباقرة ممن شافهوا العرب الخُلص الأقحاح ابتداء من القرن الثاني الهجري، وهي الفترة الخصبة في الفكر اللغوي العربي الأصيل المبدع، وحتى القرن الخامس الهجري مع عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ).⁵

وسميت هذه النظرية بالنظرية الخليلية أو اللسانيات الخليلية، وهي لا تعني الخليل وحده، إنما نسبت إليه لأنه هو الذي سبق غيره إلى استعمال المفاهيم الرياضية لضبط نظام اللغة، وفيها عكس فكره الرياضي المبدع في تأسيس النحو العربي وفق معطيات رياضية لا تحتتمل الخطأ، فجاء البحث اللساني الحديث يؤكد أن ما توصل إليه الخليل يأخذ المنحى العلمي في الحوسبة اللغوية بكافة فروعها⁶، كما وضع علم العروض، واخترع الشكل، ووضع الحركات على الحروف، ووضع معجم العين...

لابد من ملاحظة هامة فإن الخليل كما يقول الدكتور "عبد الرحمن الحاج صالح" ليس هو وحده المسؤول عن كل ما أبدعه عباقرة العلماء الأولين؛ فهناك من عاصره وكان عبقريا مثله، ومن جاء بعده وكان عبقريا مثله، ومن هؤلاء الإمام الشافعي، فهو في أصول الفقه بمنزلة الخليل في النحو وعلوم اللسان، وقد أثرى سيبويه ومن جاء بعده أفكار الخليل كالأخفش الأوسط (سعيد بن مسعدة) والمازني، ولا سيما ابن السراج والرماني والسيرافي والزجاجي، ثم ابن جني، وبعده بكثير الرضي الاستربادي (ت 687هـ) وهو من أروص العلماء وأكثرهم أصالة...، ويعد شاذا في عصره.⁷

وأضاف إليها صاحبها العالم الرياضي اللساني "الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح" لفظة الحديثة للإشارة أنها نظرية معاصرة تدعو إلى قراءة التراث وتطويره وفق ما استجد من نظريات لسانية حديثة، وما أنتج في مجال الإعلام الآلي، حيث طُبّق مواصفاتها على الحوسبة اللغوية التي تفرضها أنماط التعامل مع الأجهزة الحديثة.⁸

وبهذا تعد اللسانيات الخليلية امتدادا منقى مختارا من الآراء والنظريات التي أثبتتها النحاة العرب الأولون خاصة الخليل، فهي في الواقع نظرية ثانية

(Métathéorie) لأنها في الوقت نفسه تنظير وبحث في الأسس النظرية الخليلية الأولى، وقراءة جديدة لهذا التراث، وإعادة صياغة مفاهيمه الأساسية ومقارنتها بما توصل إليه البحث اللساني الحديث، ومحاولة استثمار ذلك في الدراسات اللغوية العربية المعاصرة.⁹

ثانيا- مفاهيم النظرية:

إن الكثير من المفاهيم والقواعد في النحو العربي الأصيل منطقية رياضية تفسر مختلف الظواهر اللغوية، حيث كان هدف العلماء في ذلك الوصول إلى أسس علمية بغية وصف اللغة العربية والنحو بالخصوص وصفا دقيقا، وهي نفسها المفاهيم التي تدور حولها النظرية الخليلية الحديثة، ومن ذلك نذكر ما يلي:

1- الأصل والفرع:

بُني النحو العربي في أصله على هذا المفهوم، إذ يعتمد فيه على تشخيص الوحدات بإدراجها في أجناس متداخلة، ومن هنا ميّز النحاة العرب الأصول عن الفروع.¹⁰

أ- الأصل: ما هو أولي بالنسبة لشيء آخر يدعى الفرع، وعند العرب "هو ما يبني عليه ولا يبني على غيره"، فهو عنصر ثابت مستمر لا يمكن أن ينحلّ أو يتجزأ إلى أصغر وإلا زال بناؤه وفقد معناه، ومثال المذكر أصل للمؤنث، النكرة أصل للمعرفة.¹¹

ب- الفرع هو نتيجة لعملية اشتقاق انطلاقا من الأصل وفق تحويل معين، فهو أصل مع زيادة ايجابية أو سلبية، ومثال ذلك المثني والجمع فرعان للمفرد (الأصل)، فحسب النحاة العرب كل كائن لغوي هو إما أصل يبني عليه الفرع أو فرع يبني على أصل.¹²

2- القياس:

هو عملية منطقية رياضية تقوم على حمل فرع على أصل في الحكم لجامع بينهما لاستنباط البنية الجامعة أو المثال الذي يشملهما، فالهدف من القياس هو

الكشف عن الصيغة المشتركة وترجمتها على شكل مثال أو حد إجرائي، ويعتبر القياس بهذا المفهوم بمثابة حجر الزاوية الذي بنيت عليه النظرية الخليلية الحديثة، فالقياس هو حمل شيء على شيء في الحكم، وهذا الحكم هو الذي يسمى في المنطق الرياضي "تطبيق النظر على النظر"، وتطبيق مجموعة على مجموعة أخرى حتى يظهر تطابق في البنية بين مجموعتين على الأقل، ومن هنا يظهر مفهوم القياس أكثر وضوحاً عندما نعلم أيضاً أنه يعمل على التحديد بالجنس والفصل، أي اكتشاف الصفات المميزة مثلما يفعل اللسانيون البنيويون الذين يكتفون بتقطيع الكلام إلى أدنى القطع الصوتية، فتتحدد كل قطعة بما يقابلها للاستبدال بقطعة أو أكثر تقوم مقامها مع بقاء الكلام مفهوماً.¹³

3- الموضع:

الموضع مفهوم خاص بالنظرية الخليلية، قد يكون موقعا أو موضعا اعتباريا، إذ قد يكون خالياً، ففي مثال لفظة "بكتاب" موضع أداة التعريف فيها موجود في الاعتبار بين الباء وكتاب، إذ قد تظهر فيه "ال" عند الاقتضاء، ويمكن تعريف الموضع كذلك بأنه عبارة عن الحيز الذي يمكن أن يشغله عنصر معين في البنية، ويمكن أن ينعدم هذا العنصر تماماً.¹⁴

4- مفهوم التحويل:

هو عملية الانتقال من الأصل إلى الفرع عبر سلسلة من الزيادات قد تتعلق الأمر بإضافة أو حذف أو تغيير في الصيغة، يكون التحويل إما طردياً بالانتقال من الأصل إلى الفرع وذلك بزيادة العناصر اللغوية على الأصل، وإما عكسياً بالانتقال من الفرع إلى الأصل، أي برد الفروع إلى الأصل، وذلك بحذف الزيادات التي أضيفت إليه.¹⁵

5- الوضع والاستعمال:

إن اللغة عبارة عن مجموعة منسجمة من الدوال والمدلولات ذات بنية عامة ثم بنى جزئية وهذا يسمى الوضع؛ أي ما يثبتته العقل من انسجام وتناسب بين العناصر اللغوية وعلاقاتها الرابطة وبين العمليات المحدثة لتلك العناصر على شكل تقريعي أو توليدي (من الأصول إلى الفروع)، أما الاستعمال فهو كيفية

إجراء الناطقين لهذا الوضع في واقع الخطاب، فيختار المتكلم ما يحتاجه من الدوال للتعبير عن أغراضه فيميز بين ما هو راجع إلى القياس وبين ما هو راجع إلى الاستعمال؛ بمعنى أن المتكلم يستعمل اللغة بحسب ما تقتضيه أحوال الخطاب، لأن قوانين الاستعمال ليست هي قوانين الوضع أو القياس، ولذلك فإن اللفظ والمعنى في الوضع يختلفان عنه في الاستعمال.¹⁶

6- مفهوم الباب:

ويتعلق باللفظ والمعنى إفراداً وتركيباً في كل مستويات اللغة، فقد أطلق سيبويه هذا المفهوم على المجموعات المرتبة من الحروف الأصلية للكلمة الثلاثية مثل: (ض.ر.ب) وغيرها، وكذلك على مستوى أبنية الكلمة أي أوزانها، وكذلك على مستوى التراكيب، فقد ذكر أن سيبويه سمى أبواباً مثل: باب «حسبك به»، وباب «لقيا وحمدا»، والباب عبارة عن مجموعة من العناصر تنتمي إلى فئة أو صنف وتجمعها بنية واحدة، وهو عند النحاة الأولين يعادل المجموعة في الرياضيات، فالباب الذي ليس فيه عنصر (المجموعة الخالية) هو المهمل عند الخليل، وقد يحتوي الباب الواحد على عنصر واحد ومثال ذلك «شنيء نسبة إلى شئ».¹⁷

7- مفهوم الاستقامة:

يُميز "سبويه" في الكتاب بين السلامة الراجعة إلى اللفظ، والسلامة الخاصة بالمعنى، كما يُميز أيضاً بين السلامة التي يقتضيها القياس (أي النظام العام الذي يُميز لغة من لغة أخرى)، والسلامة التي يفرضها الاستعمال الحقيقي للناطقين (تركيباً ودلالة)، وذلك في باب "الاستقامة من الكلام والإحالة" في قوله: «فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محال كذب، فأما المستقيم الحسن في قولك: أتيتك أمس، وسأتيك غداً، وأما المحال فأن تنقض أول كلامك بآخره في تقول: أتيتك غداً، وسأتيك أمس، وأما المستقيم الكذب في قولك: حَمَلْتُ الْجَبَلَ، وشربتُ ماء البحر ونحوه، وأما المستقيم القبيح فأن تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكى زيداً يأتيتك وأشبه هذا، وأما المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس».¹⁸

فواضح من هذا الكلام أن "سيبويه" يحدد مفهوم السلامة وعلاقتها باللفظ والمعنى من ناحية، والقياس والاستعمال من ناحية أخرى. فهناك المستقيم الحسن، والمستقيم القبيح، والمستقيم المحال.

ويمكن صياغة هذه المعاني بشكل آخر أكثر وضوحاً:¹⁹

- فالمستقيم الحسن = السليم في القياس والاستعمال جميعاً.

- والمستقيم القبيح = السليم في القياس وغير السليم في الاستعمال.

- وأما المستقيم المحال = سليم في القياس والاستعمال معاً، كنه غير سليم من حيث المعنى والدلالة.

8- مفهوم الانفرد :

ينطلق النحاة الأوائل في تحليلهم للغة من "الاسم المفرد" باعتباره النواة الأولى أو الأصل الذي تتفرّع عنه أشياء أخرى، وقد أطلق "الخليل بن أحمد الفراهيدي" على هذا المفهوم مصطلح "الاسم المظهر (= المضمّر)" ، كما أطلق عليه "ابن يعيش" و"الرضي الإستربادي" مصطلح اللفظة.²⁰

واللفظة في اللسانيات الخليلية عمادها الوقف والابتداء، فهي أقل ما يُنطقُ به مما ينفصل فيُسكت عنده ولا يلحق به شيء، أو يبتدئ فلا يسبقه شيء، فما ينفرد وينطلق، أو ما ينفصل ويبتدئ هو صفة الانفرد.²¹

ومما تجدر الإشارة إليه، أن كل وحدة لغوية قابلة للانفصال عما قبلها أو ما بعدها من الوحدات؛ بمعنى أن كل وحدة لغوية يمكن الابتداء بها والوقوف عليها حسب موقعها في الكلام، فمن الألفاظ ما ينفصل ويبتدئ مثل: "الرئيس" في نحو قولنا: "جاء الرئيس" و"الرئيس جاء"، ومنها ما ينفصل ولا يبتدئ مثل ضمير "تاء الفاعل" و"نا" والمضاف إليه في نحو قولنا: "خَرَجْتُ" و"كتابنا"، ومنها ما يبتدئ ولا ينفصل مثل حرف الجر في نحو قولنا: "في التّأني السلامة".²²

ويحمل النحاة "اللفظة" على غيرها من المثل والنماذج، فتفرّع إلى لفظات هي نظائر للنواة، ولكنها أوسع منها، من خلال تعاقب زيادات قبلية وبعدية عليها دون أن تفقد وحدتها أو تنفرد فيها أجزاؤها، فلا تخرج عن كونها لفظة (أي قطعة واحدة)، وسمّى النحاة هذه القابلية للزيادة يمينا ويسارا بـ "التمكّن"، حيث لاحظوا أن لهذا التمكّن درجات مختلفة، وتفاوتت حسب قابليتها للموقع.

وترتب الألفاظ حسب درجة تمكّنها كالاتي:²³

- أ- المتمكن الأمكن، وهو الذي يحمل معناه بداخله ولا يحتاج إلى غيره، ويتمثل في اسم الجنس المنصرف كرجل وفرس وشجرة.
 - ب- المتمكن غير الأمكن، ويتمثل في الممنوع من الصرف.
 - ج- غير المتمكن ولا أمكن، ويتمثل في الاسم المبني.
- ثالثا- أهمية النظرية:**

إن النظرية الخليلية الحديثة تضمنت منهجا بحثيا هو من أكثر المناهج صلاحية لدراسة اللغة العربية دراسة علمية مقارنة بالمناهج الغربية التي حاول الكثير من الباحثين العرب تطبيقها على اللغة العربية تطبيقا أصما دون مراعاة خصوصياتها الصوتية والصرفية والنحوية، فهي أساسا مناهج وُضعت لدراسة اللغات الأوروبية دون غيرها.

كما تهدف هذه النظرية إلى تعريف الباحث العربي في علوم اللسان بالأهمية التي تكتسبها نظرية النحاة العرب، لا من حيث إنها ما تزال ذات قيمة كبيرة من الناحية العلمية والنظرية، بل من حيث إنها يمكن أن تستثمر مفاهيمها في الميادين التطبيقية لحل مشكلات لغوية وتربوية تعترض سبيل ترقية استعمال اللغة العربية في المجالات الحيوية.

خلاصة:

مما سبق مكننا الحكم على أن هذه النظرية هي دراسة جادة وعملية، فيمكننا من خلالها إعادة وصف اللغة العربية وصفا علميا وفق المعايير اللسانية

الحديثة، لتواكب بمفرداتها وخصائصها الحركية التطورات المتسارعة في هذا العصر.

وإعادة وصف اللغة العربية وفق هذه المستجدات يعدّ عملاً لسانياً ضخماً، يمكن أن يمنح اللغة العربية مكانتها بين اللغات وبين العلوم خاصة إذا ما وجدت نية خالصة من قبل القائمين على شؤونها، وإرادة صلبة من قبل المتخصصين.

الهوامش:

- 1- هو الأستاذ الدكتور الشريف بوشحdan أستاذ علوم اللسان العربي بجامعة باجي مختار عنابة، وهو أحد طلبة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح صاحب هذه النظرية.
- 2- هو الأستاذ الدكتور محمد صاري أستاذ علوم اللسان العربي بجامعة باجي مختار عنابة سابقاً، وهو الآن ينتقل كأستاذ زائر بالجامعة القطرية، وهو أحد طلبة الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح صاحب هذه النظرية.
- 3- الشريف بوشحdan، النظرية الخيلية الحديثة وسبل ترقية اللغة العربية (مقال)، مجلة التواصل في اللغات والثقافة والأداب، العدد 31، جامعة عنابة، 2012، ص106.
- 4- محمد صاري، المفاهيم الأساسية للنظرية الخيلية الحديثة، جامعة عنابة، الجزائر، 2000، ص20.
- 5- محمد صاري، محاولات تيسير النحو قديماً وحديثاً، جامعة عنابة، الجزائر، 2003، ص138.
- 6- ينظر: صالح بلعيد، اللغة العربية العلمية، ص106.
- 7- عبد الرحمن الحاج صالح، الأصالة والبحوث اللغوية الحديثة، حوليات جامعة الجزائر، العدد 6، الجزء 1، الجزائر، 1992-1993، ص33-41.
- 8- ينظر: صالح بلعيد، المرجع السابق، ص106.
- 9- عبد الرحمن الحاج صالح، الأسس العلمية لتطوير تدريس اللغة العربية، ندوة اتحاد الجامعات العربية، جامعة الجزائر، 1984، ص1.
- 10- صالح بلعيد، المرجع نفسه، ص109.
- 11- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه (مقال)، مجلة المبرز، العدد 2، الجزائر، 1993، ص21.
- 12- ينظر: المرجع السابق، ص22.
- 13- ينظر: بشير إبرير، أصالة الخطاب في اللسانيات الخيلية الحديثة (مقال)، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة بسكرة، العدد7، الجزائر، 2005، ص20، وصالح بلعيد، اللغة العربية العلمية، ص109.

- 14- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح بحوث ودراسات في علوم اللسان العربي، ج1، موقف للنشر، الجزائر، (ط1)، 2007، ص 11.
- 15- ينظر: عبد الرحمن الحاج صالح، الجملة في كتاب سيبويه، ص22.
- 16- عبد الرحمن الحاج صالح، أثر اللسانيات في النهوض بمستوى مدرسي اللغة العربية، مجلة اللسانيات، العدد 4، جامعة الجزائر، 1974، ص26.
- 17- عبد الرحمان الحاج صالح، النظرية الخليلية الحديثة، ص 86-90.
- 18- سيبويه، الكتاب، تح، عبد السلام محمد هارون، ج1، دار الجيل، بيروت، (ط1)، 1991، ص 25-26.
- 19- عبد الرحمن الحاج صالح، المدرسة الخليلية الحديثة والدراسات اللسانية الحالية في العالم العربي، ص 379.
- 20- المرجع نفسه، ص 379.
- 21- محمد صاري، المرجع السابق، ص26.
- 22- المرجع السابق، ص26.
- 23- عبد الرحمن الحاج صالح، المرجع السابق، ص 380.